

ما هي الاستطاعة ، ومن هو المستطيع ؟ جعفر شهيدى

يقول تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ (٣٦) .
يؤم مئات الآلاف من المسلمين مكة سنوياً ، استجابةً لهذه الدعوة الإلهية ؛
فيقصدون بيت الله لأداء فريضة الحج .
ومن الواضح أنّ هؤلاء الذين ينزلون جدة ، ومدينة الحجاج - بعد أن
يقطعوا المسافة بمختلف وسائل النقل ، من طائرة وبأخرة إلى السيارة - يعدّون
أنفسهم من المستطيعين ، الذين وجبت عليهم هذه الفريضة الإلهية .
لقد بلغ من سمو هذه الفريضة ، وأهميتها ، أن لا يقتصر توكيدها في حدود
أداء التكليف الواجب وحسب ، وإنما امتد ليشمل حالات الاستحباب والندب .
فالْحجُّ أمانة إلهية ، فهو - في ثقافة المسلمين ووعيمهم - الركن الرابع من
أركان الدين ، بعد الصلاة والزكاة والصوم .

فعن الامام أبي جعفر عليه السلام قال : « بني الإسلام على خمس : على الصلاة والزكاة والصوم والحج ... » (٣٧) لذلك نقرأ في توكيد الحجّ : « من مات ولم يحجّ حجة الإسلام ، ولم يمنعه عن ذلك حاجة تجحف به ؛ أو مرض لا يطيق الحج من أجله ؛ أو سلطان يمنعه ، فليمت إن شاء يهودياً ، وإن شاء نصرانياً » (٣٨) .

وفي «دعائم الإسلام» عن الإمام الصادق ، أنه عليه السلام سُئل عن رجل له مال لم يحج حتى مات ، قال : هو ممن قال الله ﴿ ... ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (٣٩) فقال السائل : سبحان الله أعمى ؟ قال : أعماه الله عن طريق الجنة (٤٠) .

ما هي الاستطاعة ، ومن هو المستطيع ؟

لقد أوضح فقهاء المذاهب الإسلامية في رسائلهم العملية وكتب المناسك ، الاستطاعة بما مؤداه : أن يكون للإنسان مالٌ يزيد على مؤونة عياله ، بحيث يكفيه للذهاب الى مكة والإياب ، وأن تكون له ولعياله فضلة عند رجوعه من الحجّ .

مع مثل هذه الشروط السهلة ، رأى الكثير من المسلمين أنفسهم قادرين على القيام بهذه الفريضة ، والإتيان بهذا الواجب ؛ ولهذا السبب بالذات ربّما يعود سبب كثافة المسلمين الذين يقصدون بيت الله الحرام ، حيث كان عددهم فيما مضى يبلغ مئات الآلاف سنوياً ، أمّا اليوم فهو يزيد على المليون ، يتوجهون من أرجاء الدنيا الى أحد مواقيت الحجّ .

ومن جهة ثانية قد تبدو أعمال الحجّ نفسها أيسر من شروط الاستطاعة ؛ إذ هي لا تعدو - في الظاهر - أن يحرم المسلم من أحد المواقيت ، ثم يقصد مكة ، وحين يصلها يطوف بالبيت سبغاً ، ثم يصلي ركعتين خلف مقام إبراهيم عليه السلام ، فيمضي بعدهما نحو جبلي «الصفاء» و «المروة» ليسعى سبعة أشواط ، ويقصّ



بعدها شيئاً من شعره ، أو من أظفاره ؛ ليخرج من إحرامه ، بعد أن يكون قد أنهى أعمال عمرة التمتع ، انتظاراً لأداء مناسك الحج .

و حين يقترب من نهاية العشرة الأولى من ذي الحجة الحرام ، يُحرم من المسجد الحرام ، أو من مكة - عموماً - في اليوم الثامن ، أو التاسع من شهر ذي الحجة ؛ ويذهب الى عرفات ليقف فيها من الزوال حتى غروب الشمس من اليوم التاسع ، ثم يفيضُ ليلاً نحو المشعر الحرام ؛ ليمكث فيه حتى طلوع الشمس من اليوم العاشر ، حيث يتحرك صبيحة اليوم العاشر نحو منى ؛ فيرمي جمرة العقبة سبع حصيات ، ثم ينحر ويحلق « أو يأخذ شيئاً من شعر رأسه بحسب الرأي الفقهي » ، فيتحرك نحو البيت الحرام ليطوف طواف الزيارة ، ويؤدي صلاة الطواف ، ثم يسعى بين الصفا والمروة ، ثم يطوف طواف النساء ، ويؤدي صلاته ، وبعد أن ينتهي من ذلك يعود الى منى ؛ ليبيت فيها ليلة الحادي عشر ، ويمضي نهاره فيها ، ثم يبيت ليلة الثاني عشر ويمكث حتى منتصف النهار ، على أن يرمي الجمرات الثلاث كل واحدة سبع حصيات ، فيتم بذلك فريضة الحج المباركة .

الذي يبدو من هذا الاستعراض الوجيز أن شروط الاستطاعة تتسم بالكثير من اليسر والسهولة ؛ وأيسر منها وأسهل أداءً نفس مناسك الحج . بيد أننا نسأل : إذا كانت الاستطاعة ، وأعمال الحج بهذا المستوى من البساطة واليسر ؛ فلماذا عدّ الحجُّ كما في رواية ابن عباس نوعاً من الجهاد؟ (٤١)

في الجواب يجب علينا أن ننتبه الى أن ما تتحدث عنه كتب الفقه ، ومناسك الحج ، يقتصر على بيان الأحكام الظاهرية للمكلف ؛ مما يجب أن يقوم به من خلال الحركات والسكنات والألفاظ . أمّا حقيقة الحج ، وأبعاده المتكاملة فهو ما يجدر بنا أن نتقصاه في الكتب الأخلاقية ، وفي التعاليم العملية للأمم أهل البيت عليهم السلام .

ونقطة البداية هي أنّ المكلف قبل أن يتعلق به تكليف فريضة الحجّ، هو مسلم؛ وأنّ للمسلم في السنّة تعريفاً محدّداً واضحاً.

أما لماذا توكيد السنّة بالذات فيما ترسمه من حدودٍ واضحة للمسلم؟ فذاك يعود الى أنّ تعريف المسلم في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ وأخبار أهل البيت عليه السلام يكشف عن علاقة تلازم بين الإجمال والتفصيل. فالمسلم في كتاب الله يحمل صفة المسلم لجهة مشاركته في الحقوق السياسية، والاجتماعية الثابتة لمجتمع المسلمين.

أما في السنّة فهو عنوانٌ يحمله لجهة ما يضطلع به من أهلية، وجدارة للارتقاء الى مستوى هذه الصفة السامية، بحيث يكون إنساناً مؤمناً، تتسق شخصيته مع المواصفات التي يتحدّث بها الإمام الصادق عليه السلام للإنسان المسلم. فمثل هذا المسلم إذا أراد أن يؤدي فريضة الحج، فإنّ عليه أن يؤديها كما تتحدّث عنها، وعن فلسفتها كتب الأخلاق الإسلاميّة، وهو حينئذ يمارس عملاً جهادياً، يستلزم بذل الجهد وتقديم التضحية والفداء في كلّ لحظة وأن.

وحين يتمخض الحجُّ عن بذلٍ وعطاءٍ، وعن ممارسة جهادية واعية، يكون حجاً واقعياً متطابقاً في معاملة مع ما ورد في سنة رسول الله ﷺ، وفي أخبار أهل البيت، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إذا أردت الحجّ فجرد قلبك لله - عزّ وجلّ - من قبل عزمك، من كلّ شاغلٍ وحجابٍ حاجب، وفؤوسٍ أمورك كلّها الى خالقك، وتوكّل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلّم لقضائه وحكمه وقدره، ودع الدنيا والراحة والخلق» (٤٢).

وفي الموسوعة الحديثية (مستدرك الوسائل) (٤٣) حديثٌ على شكل سؤال وجواب بين الإمام علي بن الحسين السّجاد عليه السلام والشبلي، تصب دلالاته في ضرورة احراز الشروط المعنوية للمناسك، ورعايتها الى جوار أداء الظواهر.



وقد يكون هناك كلام حول شخصية الشلبي وفيما إذا كان الشخصية الصوفية المعروفة التي عاشت في الفترة بين ٢٤٧ هـق - ٣٣٤ هـق ، وبالتالي لا يمكن أن يكون هذا الشخص هو المعني ؛ لتقدّم وفاة الإمام السّجاد عليه ، أو أنّ هناك شخصية أخرى عاشت في المدينة ، وعاصرت الإمام زين العابدين عليه السلام دون أن تحفل بها كتب التراجم والتأريخ ... ؛ قد يكون ثمة كلام في كلّ ذلك ، بيد أنّ ما يعيننا من الخبر هو مضمونه ، الذي يؤكد حقيقة الحجّ من خلال رعاية شروطه المعنوية في موازاة الالتزام بظواهر المناسك .

مرّة أخرى : ما معنى الاستطاعة ؟

تحدّثنا في مطلع البحث عن الاستطاعة ، وذكرنا أنّ معاييرها في البحث الفقهي تتركز على إحراز القدرة المالية والبدنية اللازمتين ، وضمن ما هو محدّد في الكتب الفقهية . بيد أنّ ما نحتاج الى تحصيله قبل ذلك هو استطاعة من نوع آخر لا تختصّ بزائري بيت الله ، وإنما يتوجب على كلّ مسلم أن يحرزها في شخصيته ووجوده .

هذه الاستطاعة التي نعينها تتفرع الى :

١ - استطاعة علمية : ويمكن تلخيص مؤدّاها بالسؤال التالي : ماذا عليّ

أن أعمل ؟

٢ - استطاعة أخلاقية : ويمكن تلخيص محتواها بالقول : ما هو السبيل

لتطبيق ما أعرفه ؟

إنّ شريعةً ينطوي تراثها المعرفي في الأخلاق العملية على كُتبٍ من قبيل : المحجة البيضاء ، وإحياء علوم الدين ، ومعراج السعادة ، وكيمياء السعادة ، والمقامات العلية ، وعشرات الكتب الأخلاقية الأخرى ؛ وإنّ ديناً أوجب على

المسلمين كافة طلب العلم؛ حريٌّ أن يدفع كلَّ مسلم إلى التوافر على الاستطاعة في بُعْدِهَا العلمي والأخلاقي، في فترة تسبق مرحلة البلوغ والتكليف الشرعي، أو أن يُحرز على الأقل مقدمات تحصيلها تدريجياً في فترة زمنية لا تطول كثيراً. بيد أن الذي يبعث على الأسف هو أن الكثير من المسلمين لم يهتم بهذين البعدين.

فالإنسان المسلم الاعتيادي يبلغ في العادة مرحلة الاستطاعة المالية حين يتجاوز أكثر من نصف عمره، أي في عمرٍ يتعدى في الأغلب الأربعين. وحينئذٍ يبدأ بالتفكير في تعلُّم أحكام الحجِّ، ثم لا يقدم لذلك أكثر من ساعات معينة في أيام معدودة!

إننا نعرف جميعاً أنَّ التعلُّم في هذه السنِّ المتأخرة يتَّسم بصعوبة كبيرة، ومهما بذل السادة العلماء الذين يُرافقون قوافل الحجيج من جهد، فإنَّ المسألة تبقى أقرب إلى المستحيل خصوصاً إذا أضفنا إلى ذلك، أنَّ المهمة لا تقتصر على تعلُّم مناسك الحجِّ وحدها، وإنما يتبعها - أيضاً - تعلُّم القراءة والأجزاء الأخرى في الصلاة الواجبة، وكأنَّ الصلاة أصبحت - الآن - واجبةً على أمثال هؤلاء، ولم تكن كذلك قبل إحراز الاستطاعة المالية للحج.

يجب أن نعي جيداً؛ أنَّ التجربة العملية، أثبتت صعوبة أن يتعلَّم غير العربي النطق بحروف العربية من مخارجها الصحيحة، حين تتصلب بشكل نهائي أوتار حنجرتِه الصوتية في السنة الخامسة عشرة فما بعد؛ لذلك تذهب هباءً جهود العلماء الأفاضل، في أن يتعلَّم هذا المسلم - غير العربي - الذي مرَّ من عمره سبعون عاماً، على أداء معينٍ للغة، أداء الحروف بشكلها العربي الصحيح، بحيث ينطق - مثلاً - «أنَّ الحمد والنعمة» بصورة سليمة لا تستبدل الحاء بالهاء ولا تستبدل الضاد في «ولا الضالين» بالزاء مثلاً.



أما لو كانت مهمة تعلّم القراءة الصحيحة ، والأحكام الشرعية ، قد بدأت مع مرحلة البلوغ الشرعي ، وترافقت وإيّاها ، فمن المستبعد أن تظهر نظائر هذه المصاعب في المستقبل .

علينا أن نذعن أن مدى اهتمامنا بأحكام وآداب ديننا الحنيف ، هو دليل يكشف بوضوح مقدار ارتباطنا بهذا الدين ، وصلتنا الحقيقية به . فإنا نراه من أعمال بعض الحجّاج وسلوكهم في مكّة والمدينة ، يكشف بوضوح ضآلة وعيهم الديني ، وسطحية ما يعرفونه من معارف دينهم ، وأحكامه وآدابه . وهذه الحالة بدورها دالة على عدم اعتناء المجتمع الإسلامي بالإسلام ، فيما ينطوي عليه نظامه التشريعي من فقه وأحكام ، بالإضافة إلى الجهل بنظامه الأخلاقي .

إنّ ما يبعث على الأسف أكثر ، هو جهل الكثير من الحجّاج بوضع البلد (الحجاز) وما تكتنف مجتمعه من تقاليد وآداب ، وما تسوده من معايير وضوابط . بالإضافة إلى الجهل بالمواقع التي يجب أن تزار ، والآداب الخاصة بهذه الأماكن . أمّا أن يرتقي الوعي الى مستوى الإحاطة بالوضع الاقتصادي ، والموقع الجغرافي للحجاز ، والحرمين الشريفين ، مقارنة بالبلدان الإسلامية الأخرى ، فهذه لا تعدو أن تكون - بالنسبة لعامة الحجّيج - سوى أمنية بعيدة المنال !

إنّ ما يفضي إليه الجهل بالآداب السائدة في المجتمع الحجازي ؛ لا يقل في آثاره السلبية ، عن النتائج المترتبة على الجهل بأحكام الحجّ ومناسكه نفسها . فلو افترضنا أن تاجراً أراد أن يبيع سلعاً لا يتجاوز ثمنها الكلي قيمة ما يصرفه حاج واحد في الحجاز ، لقام أولاً باستطلاع السوق ، والتعرف على حاجاته وأحاط بوضع السلعة وبسبيل انتاجها ، وكيفية استهلاكها وهكذا ! فلماذا لا يكون حال الحجّاج حال هذا التاجر ؟

إنّ سلوك الحجّاج في السنوات الأخيرة ، الذي ينبغي أن يعكس مستوى

وعيمهم الديني، ودرجة معرفتهم بأحكام الإسلام، ومدى التزامهم باخلاقياته، كشف للأسف عن اهتمام مميّز بالسلع والبضائع، وبهذا افترق سلوكهم - إلى حدٍ كبير - عن منهج أئمتنا وسلوكهم، وما يتوقعونه منّا خصوصاً في سفر الحجّ! لقد دأبت الصحف على أن تنشر أحياناً بعض مصاديق السلوكيات الخاطئة للحجاج، وتوجّه اللوم اليهم، بيد أنّي شخصياً لا أميل إلى لوم هؤلاء الحجاج، بقدر ما أميل إلى تحميل نفسي وأمثالي مسؤولية التقصير عن تعليم هؤلاء.

وبعد، فإنّ الصورة تبدو واسعة متعدّدة الجوانب والأبعاد، فبعض الحجاج ذهب إلى الحجّ، وعاد دون أن يدرك شيئاً، بل إنّ بعضهم يجهل - حقاً - الأماكن التي ذهب إليها، وبعضهم لا يستطيع أن يشير لك على مواقع مكّة والمدينة على الخريطة الجغرافية، فضلاً عن أن يحيط بأوضاع هاتين المدينتين قبل الإسلام، وما أصابهما من تغيرات بظهور الإسلام.

إن مقتضى كون الحجّ ركناً من أركان الإسلام، هو أن نبني ممارستنا للفريضة على قواعد رؤية ثابتة مستقرة.. وكونه عبادة، علينا في ممارستها أن نحذر الوقوع في المحذور، فع المحذور يصعب التكليف. وما نلاحظه في واقع الممارسة العملية هو أنّه لا تكاد تخلو سنة من السنين من ظهور صعوبات أمام الحجاج، وقد تتجاوز المسألة حدود الصعوبات إلى ما هو أفدح من ذلك، كما حصل بالنسبة لبعض الفجائع المرعبة التي عاصرناها!



الهوامش :

- (٣٦) آل عمران : ٩٧ .
(٣٧) أصول الكافي ، ٢ : ١٥ ، باب «دعائم الإسلام» ، منشورات المكتبة الإسلامية ، طهران سنة ١٣٨٨ هـ .
(٣٨) سفينة البحار ، ١ : ٢١١ .
(٣٩) طه : ١٢٤ .
(٤٠) بحار الأنوار ، ٩ : ٩٩ ، الرواية ٦ ، مؤسسة الوفاء ، بيروت .
(٤١) كنز العمال ، كتاب الحج ، حديث رقم ١١٧٨٧ ، ٥ : ٤ (الطبعة الجديدة) .
(٤٢) سفينة البحار ، ١ : ٢١٣ .
(٤٣) المستدرک ، ١٠ : ٧٢ - ١٦٦ ، طبعة مؤسسة آل البيت ، قم .